



□ مقالة/ الجزء الأول

# مكتبات النجف الاشرف القديمة والحديثة

أمر طغربلك بأحراقها، فضاعَت بذلك ثروة لا تعوض من العالم الإسلامي، والعالم العربي، والعالم الشيعي خاصة، فكان لابد اذن من أن تتجه الفكرة بعد انتقال الشيخ الطوسي إلى النجف واتخاذها مركزاً علمياً، إلى التعويض عن تلك الخسارة الجسيمة التي سببها احراق المكتبة السابورية، فكان هذا مبدأ انتعاش المكتبة التي يسميها البعض (بالمكتبة العلوية) والبعض (بالمكتبة الحيدرية) والبعض الآخر (بمكتبة الصحن الشريف) في النجف، وهي المكتبة التي قيل ان تاريخ تأسيسها يرجع إلى القرن الثالث أو ما بعده على الظن القريب، وبانتقال الشيخ الطوسي إمام الشيعة في عصره إلى النجف انتقل النتاج الفكري من جميع المدن الإسلامية الشيعية لغرض التلمذة على منبر النجف، وهاجر الجمع الغفير من سائر الأقطار الشيعية، بالأدب ومواعين الأدب على حد تعبير الشيخ عليّ الشّرقى، فأوجدوا في النجف حركة فكرية تمتاز عن الحركة الفكرية في أمهات المدن العراقية، وكانت المكتبات وما بدأت تجمع من الكتب النادرة، من أعظم أحداث الثقافة، وأهم ما تتميز به النجف، حتى لقد ندر أن يكون هنالك عالم ديني دون أن تكون له مكتبة خاصة، تحتوي على الكثير أو القليل من نواذر الكتب الطيبة الفريدة.يقول الدكتور صالح أحمد العلي ... وبدأت العناية الشعبية والرسمية في حفظ التراث ومنعه من التسرب وقامت محاولات متعددة لجمع المخطوطات وصيانتها في مكتبات عامة موحدة يتاح للراغبين فيها القراءة والبحث، وأظهر تلك المحاولات هي التي قام بها نفر من (الغيورين) والعلماء في النجف والبصرة لهذا الغرض.

ولقد بلغ من شأن الكتاب وحتى الكتاب (العادي) أن يتقبله البراز، والبقال، وغيرهما، رهينة عن مبلغ ربما تجاوز ثمنه أضعافاً مضاعفة، وكثيرون أولئك الذين رهنوا مكتباتهم كلها أو بعضها في الأجيال الماضية للخروج من ضائقة مالية كبرى... وانحصرت الثروة الكبيرة ـ ان جاز ان تسمى ثروة ـ عند هذه الطبقة من أهل العلم، والبحث، والدرس بالكتب، فراجت تجارتها، وراح يطوف تجار الكتب في أغلب الأقطار الإسلامية كالهند، وإيران، ويجمعون الكتب النادرة الفريدة وغير الفريدة، من المخطوطات القديمة فيأتون بها إلى النجف ويزفون البشارة إلى هواة الكتب، والعلماء، والأدباء، بما احتوى عليه تطوافهم من نفائس الكتب، ونوادرها قبل وصول الصناديق، أو قبل فتحها، فيستعد الشراؤون للشراء، قبل وصول البضاعة بأنام، ومن الذين عرفوا بمثل هذه التجارة في الحقبة الأخيرة آل آل الدشتي، وآل زاهد، وآل العاملي، وآل الشيخ صادق الكتبي، وكان هذا أشهرهم. وقد التزم الوراث حين يموت المورث من أصحاب الكتنبو الخزائن بالمحافظة على المخلفات من هذه الكتب، ورعايتها، فلا يفرطون فيها إذا كان الوارثون من أهل العلم والمعرفة ما لم تكن هنالك حالة اضطرابية ترغمهم على اقتسام هذه الكتب، أو بيعها، فإذا ما اضطروا لبيع كتبهم نزلوا بها إلى سوق (المزاد) وسوق (المزاد) هذا سوق خاص بالكتب، يقام في كل يوم خميس، ويوم جمعة، من كل أسبوع، وهما اليومان اللذان تعطل فيهما الدراسة في النجف، فينتهب باعة الكتب هذه الفرصة، وينزلون بالكتب التي يعهد إليهم ببيعها إلى السوق، وتبدأ المزايدة من قبل الأساتذة وشيوخ العلم، والهواة، والطلاب، ولم يزل هذا السوق قائماً منذ العصور القديمة حتى اليوم،وعرفت النجف في عصرها الأخير جماعة من العلماء عدواً حجباً في معرفة الكتب النادرة من المخطوطات وقيمتها، وقد كسب هؤلاء من الشهرة ما استدعى أن يذكرهم التاريخ الحديث كخبراء بالكتب، ومؤلفيها، خبرة ابن النديم، وقد أدرك جيلنا منهم الشيخ عليّ كاشف الغطاء، والشيخ محمد السماوي، والسيد جعفر بحر العلوم، والشيخ عبدالحسين الحلي، من المتوفين، ومن مشاهير أهل الخبرة من الأحياء اليوم الشيخ أغا بزرك، والشيخ محمد رضا فرج الله، وفي يوم (المزاد) تتجه الأنظار كلها إلى الخبراء الذين يعرفون قيمة

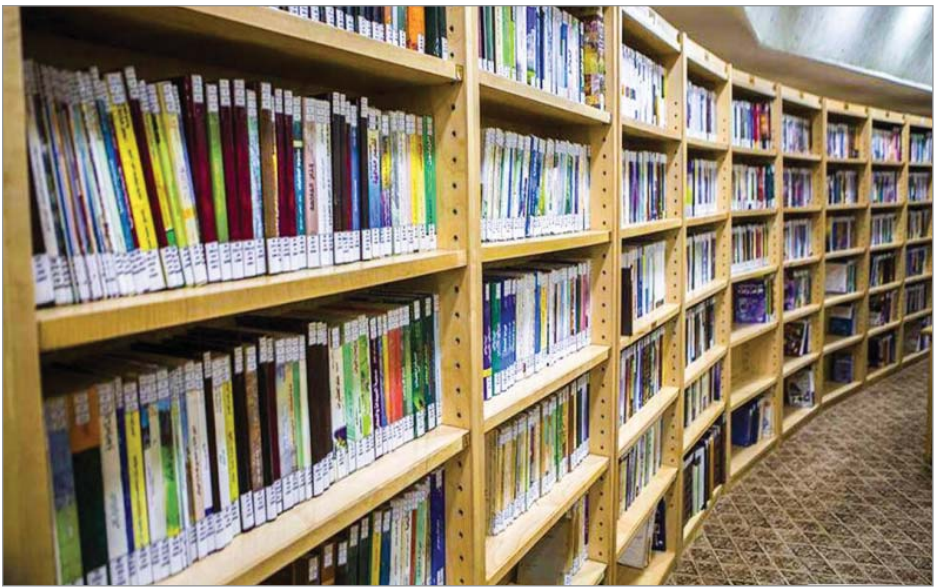
الكتب النادرة والمخطوطات، وخطاطيها، فينافسونهم في شراء الكتب التي يحاول هؤلاء الخبراء شراءها، لذلك كثيراً ما اضطر هؤلاء الخبراء للاستعانة ببعض لشراء الكتب التي يعينونها لهم، وهم يجلسون عن كتب منهم خوفاً من منافسة الجهلة التي قد تسبب ارتفاع ثمن الكتاب أكثر من ثمنه المتعارف.ويقول جرجي زيدان وفي النجف عادة قديمة لا توجد في سواها من بلاد العراق وهي انه في كل نهار خميس، وجمعة، تقوم سوق تعرض فيها الكتب، وتباع في المزايدة، فمنها ما يباع بثمن بخس وهو ثمين، ومنها ما يباع بثمن غال وهو لا يساوي فلساً، وما ذلك إلا من جهل البعض ودراية البعض الآخر وذكايتهم في مشتري المصنفات وكثيراً ما تعرض في سوق (المزاد) هذا رزم من أوراق وكتب وكرايريس مشدود بعضها إلى بعض، فينزلها من (يدلّ) بالكتب وينادي عليها في ميدان البيع باسم (الصفقة) وينادي عليها بصوت عال قائلا: انها صفقة لا تباع إلا جملة واحدة على كل عيب شرعي وكثيراً ما يعثر المشترون في هذه (الصفقات) على نفائس لا تثمن من الموائيق التاريخية، والكتب المفقودة، والنصوص الضائعة.ولم يكن الانتقال في العصور السابقة من بلد إلى آخر خصوصاً إذا كانت المسافة شاسعة بالأمر الهين اليسير، لذلك فإنّ الكثير ممن يكون قد أنهى دراسته، وراحق الاجتهاد، وأزمع النية على العودة إلى بلده، انزل كتبه إلى سوق المزاد، وباعها، أو أنه أوقفها على طلاب العلم والمعاهد فصار الكتاب الذي يدخل النجف لا يخرج منها إلا نادراً وفي حالات استثنائية، فتوسعت مكتبة النجف وصارت المخطوطات النادرة، سواء من المصاحف الفنية، أو الكتب التاريخية، أو الدينية، والأدبية، والكرايريس في زيادة مستمرة جعلت مكتبات البيوت، والمكتبات العامة، تزدح بها وتنمو يوماً بعد يوم.يقول جورجى زيدان عن مكتبات بغداد هي أم المكتبات إلا أن كتب النجف أقدم خطأ وأندر وجوداً، وأتقن كتابة، وموضوعاتها مختلفة وتاريخ المكتبات النجفية، لم يعرف مكتبة عاشت أكثر من ١٠٠، ١٥٠ سنة باستثناء (المكتبة العلوية) فقد تموت المكتبة بموت صاحبها، وتبعث في مكان آخر بانبعاث شخص جديد، وكم تألفت مكتبات ذات صيغة عامة، حوت مئات الكتب الموقوفة، ثم ما لبثت أن زالت من الوجود، أو استحالت إلى مكتبات خاصة.يقول الشيخ عليّ الشّرقى: ومن النوادر ان شيخاً من شيوخ الأدب يظهر أنه كان رقيق الدين، عرض عليّ شراء كتب مخطوطة، كانت عليها شارة التحبيس، فقلت له كيف تبيع الوقف المحبّس؟ فقال اني لا أرى الملكية في الكتاب، لأنّ المؤلف يريد بث المعرفة وإشاعة أفكاره، وما ملكية الكتاب إلا استيعابه قراءة فقط، وعليه فالكتاب لا يملك، أما الثمن المبدول فهو عوض عن قراءته فقط، ولما كانت القاعدة الفقهية القائلة(لا وقف إلا في ملك) أفمن الغلط أن يقال هذا الكتاب وقف.وقريب من هذا الرأي ما ذهب إليه جماعة من ذوي الفضل إيثاراً

وسببلا للمنفعة في كتبهم لكل من يريد الاستفادة بقرآتها، قائلين: ان غلة الكتاب قراءته، وزكاة تلك الغلة اعارته، ويعاكس هذا الرأي من يوص باب مكتبته في وجوه الطلاب، شحة وضنة، وكثير أولئك الذين يقبضون على الكتب قبضة الشحيح.ويقول الشّرقى: اتفق لي وأنا صبي ان ألج على ضنين بالكتب، مكتبته التي صفت فيها الكتب النفيسة وراء أبواب الزجاج، وكانت المكتبة مفروشة بالطنافس، والسجاد الابراني الممتاز، فوجدت صاحب المكتبة جالساً على طراحة في زاوية تلك المكتبة، وهو كفيف البصر، وإلى جانبه قارىء يتلو عليه ما يريد تلاوته، وبيناً أنا أطارحه الحديث رفعت يدي، فاصطدمت بباب الخزانة، وعندما سمع نقرها اضطرب انزعاجاً، واستفهم بارتباك، ولم تهدأ روعته حتى عرف أنها الصدفة ولم يحدث شيء...!! ويتابع الشّرقى حديثه فيقول ويبدور الزمن، ويموت ذلك الجمّاعة للكتب، وبهم وارثه بحمل ما في المكتبة إلى معرض الكتب للبيع فيستعين بي وبريفق لي لنعرفه بالمهم من تلك النفائس، وتثمينها وعند دخولي المكتبة دهشت حين وجدتها شعثاء، موحشة، قد فارقت رونقها، وكان التراب فراشها والغبرة تعلق خزاناتها، ومد لنا حصير جلسنا فوقه، وكان رفيقي لا يعلم بما يخالجنى، وبيننا نحن منهمكون باستعراض بعض الكتب المبنوثة في تلك المنزلبة لا المكتبة، إذا برجة تهز الغرفة، فحولت بصري ووجدت أحد الورثة قد وضع سلماً خشبياً وصعد عليه واضعاً يده وراء النضدة من الكتب، يدفعها لتطيح على الأرض لأنه تعب من تناولها كتاباً كتاباً، فتذكرت ذلك الكفيف وفّرته من نفرة الباب، وكيف أربكته، وقلت من لي به ليسمع ويشاهد ما فعله هذا العايب البطر.لذلك فليس اليوم أثر، ولا بعض أثر للمكتبات العامة التي ألحقت بالمدارس الدينية العلمية قديماً.أما المكتبات الخاصة فكم بالأولى أن تزول من الوجود، بعد زمن قصير، حين يكون الوراثون لها مضطربين لبيعها، أو مهملين لرعايتها، وعلى هذا فما كان من المكتبات في القرون الأخيرة كالرابع عشر والثالث عشر مثلاً هو غير ما كان في القرن الثاني عشر والحادي عشر وما قبل ذلك.وما كانت يملكه آل (الملاي) مثلاً من نفائس المخطوطات في أوائل القرن الثالث عشر هو اليوم من ممتلكات طوائف كثيرة من أهل العلم في النجف وهو يؤلف جزءاً من مكتبات لم يكن لها أي وجود قبل هذا القرن، وهذا ما جعل من الصعب على المؤرخين أن يعرضوا لتاريخ هذا العدد الهائل من المكتبات التي كانت تنشأ في جبل وتزول في جبل آخر، لقلة المراجع التي يعول عليها المؤرخ ومع ذلك فإننا سنعرض هنا كل ما وسعنا أن نستخلصه من المصادر المثبتة، أو الذي حققناه بأنفسنا ما يدخل ضمن معلوماتنا الخاصة.

### ■ مكتبات النجف

وكانت في النجف مكتبات أخرى لم يعد أحد بدرسها على رغم قرب العهد بها مع ان قسماً منها لا يقل شأناً عن المكتبات المهمة من حيث نوعية الكتب وقيمتها العلمية والتاريخية، ولربما كان السبب في عدم ذكرها من قبل المؤرخين، هو صعوبة إحصائها إذ ما من بيت من بيوت أهل العلم وليس فيه مكتبة كبرت أم صغرت والaitان على ذكرها قد يقارب المستحيل، ونحن هنا نذكر أشهر هذه المكتبات على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر:

- مكتبة آل الشيخ راضي (القرن الثالث عشر) وهي مكتبة تعتبر من أعمار المكتبات وأزخرها بالكتب العلمية، وهي اليوم موزعة في بيوت هذه الأسرة ولعلها المكتبة الوحيدة التي لم يفرط فيهاها الوارثون بالبيع والتلف ومع ذلك فهي مشتتة بين أفراد الأسرة.
- مكتبة الشيخ الأنصاري (القرن الثالث عشر) وقد بيعت بعده وتوزعت ولم تبق اليوم منها بقية.
- مكتبة السيد محمد الهندي. (القرن الثالث عشر)
- وقد ورثها بعده أولاده ثم تفرقت وتآلفت من أكثرها مكتبة السيد صادق الهندي.
- مكتبة الحاج ميرزا حسين الخليلي (القرن الرابع عشر) . مكتبة توزعت بعده بين ورثته واقتنى أكثرها ابنه الشيخ محمّد الخليلي وهوب قسماً منها لمكتبتي مدرستي الخليلي.
- مكتبة الأخوند (القرن الرابع عشر) وقد توزعت بعد وفاته ولم يبق منها إلا عدد عند أولاده.
- مكتبة الشيخ عبدالله المازندراني (القرن الرابع عشر) وقد بيعت بعد وفاته ولم يبق منها شيء يذكر.
- مكتبة السيد محمد سعيد الحويبي . (القرن الرابع عشر) وهي من المكتبات المعروفة في وقتها ولم يبق اليوم منها إلا عدد في بيوت (الأسرة).
- مكتبة اليزدي. وكانت مكتبة فخمة أسسها السيد



كاظم اليزدي ثم أسس ابنه السيد محمّد لنفسه مكتبة مستقلة كانت تزدح بالنفائس من الكتب النادرة وكانت تستلفت النظر في وقتها بين مكتبات العلماء في (القرن الرابع عشر).

٩ ـ مكتبة الماقمقاني ـ (القرن الرابع عشر) وتمتد جذورها إلى القرن الثالث عشر فقد أسسها الشيخ حسن الماقمقاني ثم انتقلت إلى الشيخ عبدالله وهي الآن في حوزة الشيخ محي الدين الماقمقاني.

١٠ ـ مكتبة آل حرز ـ (القرن الرابع عشر) وقد انتقلت إلى حفيده وهي تضم عدداً كبيراً في التفسير والحديث.

١١ ـ مكتبة آل المظفر ـ (القرن الرابع عشر) وقد انتقلت نواتها من الشيخ عبدالنبي إلى الشيخ محمّد حسن مظفر وكانت تخص جميع الأخوة من آل المظفر ثم تجزأت.

١٢ ـ مكتبة الجزائري ـ (القرن الرابع عشر) وهي بقايا مما احتفظ بها الشيخ عبدالكريم الجزائري وأخوه الشيخ محمّد جواد وليس لها بعدهما كيان مستقل.

١٣ ـ مكتبة الشبيبي ـ (القرن الرابع عشر) أسسها الشيخ جواد الشبيبي وقد انتقلت من النجف إلى بغداد على أثر انتقال الأسرة وصارت باسم الشيخ محمّد رضا الشبيبي، وهي من أهم مكتبات بغداد الخاصة اليوم.

١٤ ـ مكتبة آل الجواهري ـ (القرن الرابع عشر) وقد كانت مكتبة فخمة يرجع تأريخها إلى القرن الثالث عشر ثم توزعت وانتشرت هنا وهناك ولم يبق ما يسمى بالمكتبة إلا عند الشيخ عبدالرسول الجواهري.

١٥ ـ مكتبة هبة الدين الحسيني الشهرستاني ـ (القرن الرابع عشر) أسسها في النجف ثم نقلها إلى كربلاء وحين سكن بغداد نقلها إلى بغداد، وكانت من المكتبات المذكورة.

١٦ ـ مكتبة الشيخ عبدالحسين الحلي ـ (القرن الرابع عشر) وقد باعها وباع داره حين أعوز ولم يفرط بكرامته، وكانت تضم أمهات الكتب الأدبية واللغوية بوجه خاص.

١٧ ـ مكتبة البلاغي ـ وهي مكتبة الشيخ جواد البلاغي، وقد كانت على قلة عدد كتبها مكتبة جامعة لأهم مصادر الشريعة وكتب المذاهب والنحل.

١٨ ـ مكتبة آل الصافي ـ (القرن الرابع عشر) وهي مكتبة السيد محمّد رضا الصافي والسيد أمين الصافي ولم يبق منها إلا ما احتفظ بها السيد أمين وقد نقل بعضها إلى البحرين.

١٩ ـ مكتبة الشيخ قاسم محي الدين ـ (القرن الرابع عشر) وقد اضطر إلى بيعها وانفاق ثمنها على معالجته وكانت مكتبة تحتوي على عدد قليل من المخطوطات والكتب القديمة في مختلف العلوم الدينية.

٢٠ ـ مكتبة الشّرقى ـ (القرن الرابع عشر) وقد ورث بعضها الشيخ عليّ الشّرقى، من أبيه الشيخ جعفر الشّرقى وأضاف خلفه ما وسعها، وحين انتقل إلى بغداد نقلها معه.

٢١ ـ مكتبة السيد عليّ شبر ـ (القرن الرابع عشر) ولّال شبر في النجف عدة مكتبات نقلت إلى خارج النجف بانتقال أصحابها وأشهر هذه المكتبات وأوسعها هي مكتبة السيد عليّ شبر وهي تضم طائفة من كتب الفقه النادرة، والحديث والتفسير.

٢٢ ـ مكتبة السيد محمّد البغدادي (القرن الرابع عشر) وتعتبر اليوم من المكتبات المذكورة بما تحتوي عليه من المخطوطات النادرة في الحديث والفقه والتفسير.

٢٣ ـ مكتبة السيد عليّ السيد هادي بحر العلوم (القرن الرابع عشر) وكانت من أوسع المكتبات تجمع بين الحديث والقديم وفيها عدد من المخطوطات النادرة وقد اضطرتّه الظروف إلى بيعها فباعها ولم يبق منها إلا بقية اتخذ منها خلفه السيد محمّد نواة ولم تلبث أن أصبحت اليوم مكتبة مذكورة.

٢٤ ـ مكتبة المقرم ـ (القرن الرابع عشر) وهو السيد عبدالزاق المقرم، وتعد اليوم من المكتبات المحترمة وفيها عدد من الكتب القديمة المهمة بالإضافة إلى أمهات الكتب الحديثة.

٢٥ ـ مكتبة الهمداني ـ (القرن الرابع عشر) وهي الآن من المكتبات الخاصة لا يفوتها إلا عددٌ عتد المكتبات.

٢٦ ـ مكتبة الجعفري ـ وهي مكتبة صالح الجعفري،

مكتبة ثمينة جمع فيها الجعفري أهم المصادر والمراجع بالإضافة إلى النسخ النادرة من الكتب المطبوعة والمخطوطة ووصفته من شعراء النجف المعروفين فقد اهتم بجمع عدد من الدواوين والمجاميع الشعرية التي يقل نظائرها في المكتبات الأخرى، وقد اشترى قسماً من كتب الشيخ السماوي عند عرضها للبيع كما قد مر.

٢٧ ـ ولكل مدرسة رسمية حديثة مكتبة صغيرة لا يزيد مجموعها على محتويات دولا ب أو دولابين من الكتب لمراجعة المعلمين كما هو الحال في جميع المدارس الرسمية في العراق، كذلك هو الحال في أغلب المدارس الدينية فإن فيها بعض القماطر المحتوية على بعض الكتب النافعة، وبالإجمال فإن النجف بمكتباتها تعتبر أهم مرجع في البحوث العلمية بمختلف مواضعها وهي تحتوي على عدد غير قليل من الكتب النادرة والفريدة بين الكتب التي ضاعت أصولها وانحصرت بنسخ معينة ربما لم تملكها مكتبة غير مكتبات النجف.يقول صاحب جريدة (كل شيء) البغدادية انه زار في أثناء مروره بألمانيا الديمقراطية البروفسور(هافر) استاذ الدراسات الإسلامية بجامعة (ليبنزيغ) وحين جاء حديث الكتب والمكتبات قال البروفسور(هافر) عن مكتبات النجف ما يلي وبهذا النص: ما زال النجف الأشرف منطلق الاشعاع الفكري العربي، وما زالت كنوزه الفكرية والأدبية والثقافية تبت الأنوار في الأفكار، والخير في النفوس، وما زالت مكتباته تعج بأنفس الأسفار مما جعلها دأماً في مقدمة المكتبات العربية.

إليه الجزء الثاني في العدد المقبل

المصدر: الموقع الشامل للحوزة العلمية